



العولمة الإعلامية وإشكالية المواطنة والهوية الثقافية

Media globalization and the problem of citizenship and cultural identity

فوزي بومنجل *

جامعة 20 أوت 55 سكيكدة الجزائر ، boumef70@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2022/09/30

تاريخ القبول: 2022/09/15

تاريخ الاستلام: 2022/09/10

Doi: 10.53284/2120-009-003-018

الملخص

إن المواطنة باعتبارها امتدادا طبيعيا ومحضنا للهوية الثقافية وللخصوصية الحضارية يستلزم وضعها في محيطها الإقليمي والدولي عن طريق الانفتاح على كل الثقافات والدول والاستفادة من خبرات الآخرين لإثراء رصيدها الحضاري والثقافي، حتى تتمكن من تصدير تجاربها كعنصر فاعل وفعال في ظل التحولات الراهنة، فالعلاقة الاجتماعية التي تقوم بين من يملك التكنولوجيا اليوم ومن لا يملكها في عالم معولم اتصاليا وإعلاميا تجعل الطرف الثاني يقدم الولاء والانتماء، ويتولى الطرف الأول الأمن والحماية على كل المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية... لذلك فعلى من لا يملك تبني استراتيجيات تمكن من وضع الخطط والبرامج التي تهدف إلى مواكبة هذه النقلة النوعية في عالم الاتصال، من خلال إدماج التكنولوجيات الجديدة في خطط التنمية وفقا لرؤية استشرافية تراعى فيها الخصوصيات الثقافية.

الكلمات المفتاحية: العولمة، العولمة الإعلامية، المواطنة، الهوية الثقافية

Abstract:

The citizenship as an incubator of identity and cultural privacy necessitates placing it in its regional and international surroundings through openness to all cultures and countries and benefiting from the experiences of others to enrich its civilization and cultural balance, so that it can export its experiences as an active and effective element in light of the current transformations. Consequently, the social relationship that exists between the haves technology and the do-nots in a globalized communicative and media world makes the second party offer loyalty and affiliation, and the first party undertakes security and protection at all economic, social and cultural levels... Therefore, those who do not have to adopt strategies that enable the development of plans and programs that It aims to keep pace with this paradigm shift in the world of communication.

Keywords: Globalization, media globalization, citizenship, cultural identity.



1-مقدمة:

لقد أحدثت تقنية الانترنت ثورة رقمية شاملة مست كل المجالات خاصة مجال الإعلام والاتصال نتيجة للتزاوج الذي حدث بين التقنيات والبرمجيات من جهة والمعدات من جهة أخرى، وتكتسب هذه التقنية أهمية كبيرة لما تتميز به من سرعة وتفاعلية، عالية الانتشار وسعة الوعاء المعلوماتي الذي تحمله في ثناياها وغيرها من الخصائص، ما ساهم في إحداث نقلة نوعية في عالم الإعلام والاتصال والمعلومات، متجاوزة بذلك الحدود الجغرافية الدولية، الخصوصيات الثقافية وحتى الذهنيات، فأصبح إنتاج المعلومة والوصول إليها أكثر مرونة وسهولة من أي وقت مضى. وقد استهدفت هذه العولمة الإعلامية المعلوماتية مقومات الخصوصية الثقافية من قيم وأذواق ومختلف أنماط السلوك، الأمر الذي انعكس مباشرة في الفكر القومي ذاته، ومن ثم تسطيح الوعي بالسيطرة على الإدراك وتكريس نمط في الاستهلاك يخرب الهوية ويعوق التنمية في البلدان النامية. وبالتالي الكل يقر بأن تكنولوجيا الاتصال الحديثة لها تأثيراً على الهوية الثقافية بنسب متفاوتة وبرؤى متضاربة، وبين مؤيد ومعارض لتأثير هذا السيل الجارف الذي يأتي كل ما هو أحضر وبأس دون قيود أو إشعار مسبق، أو حتى إعطاء الفرصة في تشكيل ميكانيزمات وقائية، دفاعية وانتقائية لهذه السياسة الإعلامية ذات الإستراتيجية متوسطة وبعيدة المدى. ومن ثم كان من الطبيعي أن يختلف المحللون للظاهرة حول تحديد ذلك الأثر في الهوية الثقافية من خلال تحديده، ضبطه، أهميته وآفاقه...

وبالتالي فمن البديهي اليوم أن نجاح أي بلد من البلدان النامية يكمن في الحفاظ على هويتها والدفاع عن خصوصيتها في هذا العالم المعولم اعلاميا واتصاليا بالاعتماد على كل المقومات المادية وتفعيل البحوث العلمية لتتحول من مجتمعات مستهلكة للتكنولوجيا إلى مجتمعات منتجة للتكنولوجيا.

2-الموضوع:

2-1- العولمة ووسائل الإعلام والاتصال بين التوجيه والاستقلالية:

يقول " ألبرت أينشتاين " العالم إما كل واحد وإما لا شيء، من هذا المنطلق آمنت العولمة بهذه المقولة، فهي تنظر إلى شعوب العالم من منظور وحدة الجنس البشري بصورة تتجاوز النسبية الثقافية سواء العقائدية أو القيمية أو اللغوية، سندهم في هذا أن الخلق العالمي يقوم على مبادئ إنسانية عامة فرضتها المنظمات الدولية ومواثيق حقوق الإنسان العالمية. (نبيل علي، 2001، ص410)

فمجتمعتنا المعاصر بكل تعقيداته القيمية، حاول أن يكيف الكثير من المفاهيم التقليدية الواسعة الانتشار والمرتبطة بالاجتماع والسياسة، مع ما هو متداول اليوم من مصطلحات نتيجة إفرازات سياسات ثقافية تعكس واقع العولمة. فبين من هو متشبث بهويته وبأصالته، وبين من هو متفتح متطلع على واقع غيره تكمن هذه الثنائية اللامتناهية الأبعاد حول تحديد مفهوم المواطنة (www.google.fr 01/09/2020à14h00) فنحن إزاء العولمة كالعميان إزاء الفيل في تلك القصة الشهيرة التي يلمس فيها كل من العميان جانبا من الفيل، فيصفه على انه الفيل بأكمله دون أن يعرف أن للفيل جوانب أخرى كثيرة، كل منا



في وصفه للعولمة على صواب تماما، لولا أن معظمنا لا يريد أن يعترف بأن بقية العميان هم على صواب أيضا. فالعولمة ليست مجرد مفهوم أو حالة راهنة، وإنما هي عملية ديناميكية مستمرة يمكن ملاحظة سيرورتها باستخدام مؤشرات كمية وكيفية، كما أنها ظاهرة مركبة تتداخل في تركيبها مظاهر وعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وإعلامية وتقنية وعسكرية (ماجد شدد، 1998، ص 22)

ليس ثمة تناقض في هذا العصر الذي نسعى إلى تمثله، عصر يلته في قادمه يكاد يلحق سابقه، وتتهاوى فيه الأفكار على مرأى من بدايتها، وتتقدم فيه الأشياء وهي في أوج جدتها، عصر تتآلف فيه الأشياء مع أضدادها، فالمعرفة قوة والقوة معرفة، معرفة تفرزها هذه القوة لخدمة أغراضها وتبرير ممارستها وتقرير قراراتها، لهذا التضاد المعرفي رفيق اقتصادي، فالمعلومات مال بعد أن أصبحت موردا تنمويا يفوق في أهميته الموارد المادية، والمال بدوره أوشك أن يكون مجرد معلومات، نبضات وإشارات وشفرات تتبادلها البنوك في معاملاتها المالية الكترونيا وثمة علاقة بين هذا التضاد المعرفي والمعلوماتي والتضاد الحاكم في عصرنا الذي أصبح فيه العلم هو ثقافة المستقبل. (نبيل علي، 2001، ص 09)

إن التكنولوجيا ليست خيرا خالصا، كما أنها ليست شرا صرفا، وعادة ما تجمع كل تكنولوجيا بين ما هو إيجابي وما هو سلبي. ولاشك أن تكنولوجيا الاتصال الجديدة تسد نقصا في التكنولوجيا القديمة، وإنما يحدث عادة قدرا من التوافق بين القديم والجديد لصالح خدمة البشر. والتكامل لا يحدث بين التكنولوجيا القديمة والجديدة فقط، وإنما يحدث بين التكنولوجيا والعقل البشري، فدور التكنولوجيا وقيمتها يحددها المجتمع وتؤثر فيهما البيئة. (فضيل دليو، 2002، ص 137)

فلقد قيل بأنه لا يحق لدولة أن تدعي أنها مستقلة إذا كانت وسائلها الإعلامية تحت سيطرة أجنبية، إذ ظهر بوضوح أنه لا يمكن أن يقوم استقلال حقيقي وشامل دون وجود وسائل اتصال وطنية مستقلة تكون قادرة على حماية هذا الاستقلال وتعزيزه. وتشير الخريطة الإعلامية الراهنة للعالم إلى أن التفاوت في السلطة والثراء بين الشمال والجنوب كان له انعكاساته السلبية المباشرة على البنى الإعلامية والتدفق الإعلامي مما خلق أشكال متباينة من عدم المساواة والاختلال والتفاوت الإعلامي. كلما ازداد اتساع الفجوة بين من يملكون المعلومات ووسائل نشرها وتوزيعها، وبين من يفتقرون إليها، وكذلك تأكد الاختلال بين من يثبون المعلومات وبين من يتلقونها، مما ساعد على ترسيخ الصور العديدة للتبعية الإعلامية والثقافية. (عواطف عبد الرحمان، 1990، ص 56) وبالتالي ففي إطار هذه العولمة تجد المؤسسات نفسها ملزمة بمهامها الاتصالية والعلائقية على أكما وجه باستخدام كل ما يتاح لها من وسائل وأدوات اتصالية سواء كانت جماهيرية أو الكترونية عبر شبكات التواصل الاجتماعي، أو ما يسميه خبراء الإعلام والاتصال خارج وسائل الإعلام (Adary et autres, 2015, p74)

وهكذا أصبحت عولمة الإعلام سمة رئيسية من سمات العصر وهي امتداد أو توسع في مناطق جغرافية لتقديم مضمون متشابه وذلك كمقدمة لنوع من التوسع الثقافي نتيجة ذلك التطور لوسائل الإعلام والاتصال التي جعلت بالإمكان فصل المكان عن الهوية والقفز فوق الحدود الثقافية والسياسية والتقليل من مشاعر الانتماء إلى مكان محدود. ومن الأوائل الذين تطرقوا إلى هذا



الموضوع عالم الاجتماع الكندي مارشال ماكلوهان حيث صاغ في نهاية الستينات ما يسمى بالقرية العالمية. وتشير عولمة الإعلام إلى تركيز وسائل الإعلام في عدد من التكتلات الرأسمالية العابرة للقارات لاستخدامها في نشر وتوزيع نطاق النمط الرأسمالي في كل العالم من خلال ما يقدمه من مضمون عبر وسائل الإعلام في المجالات المختلفة (ماجد شهود، 1998، ص 74) ويمكن رصد مجموعة من الخصائص والسمات لإعلام العولمة فيما يلي:

-إعلام متقدم من الناحية التكنولوجية ومؤهل لتطورات مستقبلية جديدة ومستمرة تدفع بها إلى المزيد من الانتشار المؤثر في المجتمعات المتخلفة

-تشكل جزءا من البنية السياسية الدولية الجديدة التي تطرح مفاهيم جديدة لسيادة الدولة على أرضها وشواطئها وفضاءها الخارجي بما يعرف بالنظام السياسي العالمي الجديد

-يشكل جزءا من البنية الاقتصادية والعالمية التي تفرض على الكل أن يعمل ضمن شروط السوق السائدة من صراعات ومنافسات وتكتلات وسعي متصل لتحقيق الربح للمؤسسات التي تحتكرها بحكم انتمائها إلى أكثر من وطن وعملها في اكسر من مجال بما في ذلك صناعة وتجارة السلاح

-يشكل جزءا من البنية الثقافية للمجتمعات التي تنتجها وتوجهها وتتواجه بها، ولهذا فإنه يسعى إلى نشر وشيوع ثقافة عالمية تعرف عن مصادرها بالانفتاح الثقافي وعند متلقيها بالغزو الثقافي

-يشكل جزءا من البنية الاتصالية الدولية التي مكنتها من تحقيق عولمتها وعولمة وسائلها ورسائلها. فالخقل الإعلامي ينتمي إلى حد حقول التكنولوجيا الأكثر تطورا في الوقت الراهن والمحتكر بشكل مباشر

-لا يشكل نظاما دوليا متوازيا لأن كل مدخلاته ومراكز تشغيله وآليات التحكم فيها تأتي من الشمال وهذا أدى إلى هيمنة الدول المتقدمة عليها في مقابل تبعية الدول النامية لها

-لا يستند إلى فراغ فئمة اتفاقيات دولية تدعمها منظمات وقرارات تحدد استخدام شبكاتها لتوزيع طيفه وموجاته السمعية وأليافه البصرية وبثه المباشر والتعريفية الجمركية للصحف والمجلات والكتب والأشرطة والاسطوانات المدبلجة ووسائله المتعددة. (محمد عابد الجابري، 1998، ص 11)

2-2- العولمة الإعلامية وثنائية المواطنة والهوية الثقافية في الدول النامية (واقع ورهان):

لا يختلف الباحثون بتأكيد تأثير تكنولوجيات الإعلام والاتصال على الهوية الثقافية فمن الطبيعي أن كلا منا لا يرى إلا هذا الأثر الذي يصدر عن ذلك الجانب من العولمة الذي يلمسه بيده، ومن ثم كان من الطبيعي أن يختلف المحللون لظاهرة العولمة حول تحديد ذلك الأثر في الهوية الثقافية : ما هو بالضبط؟ هل هو مهم أو غير مهم؟ مرغوب فيه أم غير مرغوب فيه؟ من السهل تجنبه أم من الصعب ذلك؟



هناك مثلاً من لا يرى في العولمة إلا اتجاهها متزايداً نحو تقسيم العمل وانتشار إتيقانه (التكنولوجيا) الحديثة من مراكزها في العالم المتقدم اقتصادياً إلى أقصى أطراف الأرض، ومن ثم زيادة الإنتاج أضعافاً مضاعفة، وهو في سبيل ذلك مستعد لأن يغفر للعولمة أي تأثير سلبي في الهوية الثقافية يمكن أن ينتج عنها بل هو مستعد للقول بأن هذا الأثر السلبي في الهوية تافه أو بسيط، بل قد يذهب على حد القول بأن الهوية الثقافية سوف تستفيد من العولمة بدلاً من أن تنضر منها.

هناك أيضاً المفتونون بالحضارة الغربية بوجه عام، ليس فقط بكفاءتها المنقطعة النظير في الإنتاج المادي، بل في نقل المعلومات وتخزينها وتوفيرها لمن يريد الانتفاع بها، وبما حققه الغرب في مضمار التنظيم السياسي والاجتماعي والإنتاج الثقافي أولئك المفتونون بالديمقراطية الغربية، وبالعلاقات الاجتماعية الغربية، وبغزارة ونوع الإنتاج الثقافي في الغرب، ويتمنون لشعوبهم سرعة اللحاق بكل هذه الإنجازات ويجدون في العولمة السبيل إلى ذلك. ومن هؤلاء من لا تثير لديهم مسألة الهوية الثقافية إلا السخرية والاستهزاء إذ ما هي تلك الهوية التي تبدو قلقاً عليها كل هذا القلق؟ هل تعني هذه الهوية شيئاً آخر غير التخلف والجهل والفقر والعقم، والقعود التام عن الحركة، والاستسلام للخزعبلات والتقاليد التي لم يعد لها دور في العالم الحديث؟

هناك أيضاً الكارهون للعولمة، ولهم الكثير من الأسباب لهذه الكراهية. هناك من يكرهونها لأنها تتضمن مزيداً من الاستغلال الاقتصادي، ألا ترى مثلاً ما تفعله الاستثمارات الأجنبية الخاصة عندما تترك العامل في البلاد الرأسمالية نبهاً للبطالة، وتذهب لاستغلال العمل الرخيص في البلاد الأقل نمواً؟ ألا ترى شركات الأدوية العملاقة تضغط من أجل أن تفتح لها كل بلاد العالم أبوابها لتحقيق مزيداً من الربح على حساب مستهلكي هذه الأدوية ومنتجها داخل هذه البلاد الأقل نمواً؟ نعم الهوية الثقافية لا بد من أن تعاني جراء ذلك ولكن المعاناة هنا ليست إلا نتيجة الاستغلال الرأسمالي إذ تحمل كل هذه الاستثمارات الأجنبية وهذه السلع المستوردة في طياتها ثقافة مغايرة تسحق ثقافات الأمم المستوردة لها، لا لغرض إلا لتحقيق مزيد من الأرباح. وحماية الهوية الثقافية واجبة، في نظر هؤلاء كوسيلة للتصدي لهذا الاستغلال، إذ أن إثارة الحمية الوطنية والحماس للثقافة الوطنية قد يعطلان هذا الاتجاه لدى الرأسمالية العالمية للانتشار.

وهناك من يكره العولمة، لا لسبب اقتصادي بل لسبب ديني، فالعولمة آتية من مراكز دينها غير ديننا بل هي قد تنكرت للأديان كلها وآمنت بالعلمانية التي لا تختلف كثيراً في نظر هؤلاء عن الكفر. ومن ثم ففتح الأبواب أمام العولمة هو فتح الأبواب أمام الكفر، والغزو هنا في الأساس ليس غزواً اقتصادياً، بل غزو من جانب فلسفة للحياة معادية للدين والهوية الثقافية المهددة هنا في الأساس دين الأمة وعقيدتها، وحماية الهوية معناه في الأساس الدفاع عن الدين.

هناك من ناحية أخرى، من يرى أن العولمة ليست غزواً اقتصادياً أو غزواً علمانياً، بل غزو "قومي" بمعنى تحديد هوية أمة لهوية أمة أخرى. صحيح أن هذا الغزو يتضمن استغلالاً اقتصادياً، وصحيح أنه يهدد دين الأمة التي يجري غزوها، ولكن هذا وذاك ليسا إلا جزأين من ظاهرة أوسع، وهما مرفوضان لسبب أكبر وأشمّل، فالاستقلال الاقتصادي ليس مطلوباً فقط لمنع الاستغلال بل مطلوب لتحقيق نهضة شاملة للأمة وتحقيقاً لاستقلال إرادتها. وتحديد الدين والعقيدة جزء من تحديد نمط الحياة بأسره ولقيم الأمة



بصفة عامة، التي يعتبر الدين جزءا منها ولكنه لا يستوعبها كلها، وذلك لصالح نمط الحياة في تلك المراكز التي تولد هذا الاتجاه نحو العولمة. في نظر هؤلاء تعتبر حماية الهوية الثقافية هي الهدف الأصلي و ليست مجرد وسيلة للتصدي للاستغلال الاقتصادي، كما أنه هدف أشمل من هدف حماية الدين من العلمانية.

إن كلا من هدف المواقف المؤيدة للعولمة أو المضادة لها يحمل جزءا من الحقيقة وهو جزء لا يمكن الاستهانة به، نعم العولمة تؤدي إلى تعظيم الإنتاج، على الأقل من وجهة نظر العالم ككل، وهي تمثل تقدما لا يمكن إنكاره في بعض القدرات المهمة للإنسان في المعرفة وفي السيطرة على الطبيعة، وفي بعض أنواع التنظيم السياسي والاجتماعي، وفي بعض أنواع الإنتاج العلمي والفني. والعولمة تتضمن، بلا شك اتجاها نحو مزيد من الاستغلال الاقتصادي من جانب الشركات العملاقة للمستضعفين في الأرض، وتتضمن قهرا لمعتقدات بعض الأمم ومقدساتها لصالح نظرة تتخذ على الأقل موقف اللامبالاة من العقائد الدينية. وهي بلا شك تهدد أنماط الحياة الخاصة بالأمم التي كانت أكثر انعزالا عن العالم لصالح نمط معين من للحياة هو السائد في الدول الأكثر سطوة.

ولكن هذه المواقف المرحبة بالعولمة والمضادة لها قد لا تستوعب كل المواقف الممكنة من العولمة، ومن ثم فقد لا تستوعب كل المواقف الممكنة من قضية حماية الهوية الثقافية. إن هناك موقفا يمكن أن يتبنى كلما أمعنا التفكير في ظاهرة العولمة والهوية الثقافية، وقد يمثل جانبا يستحق الاهتمام، وقد لا يقل أهمية عن مختلف الجوانب التي ذكرتها، سواء من حيث مساعدتنا على فهم حقيقة العولمة، أو على اتخاذ الموقف الصحيح منها. كما أنه يؤدي إلى نظرة إلى الخطر الذي يهدد الهوية الثقافية، قد تختلف اختلافا مهما عن النظرات الأخرى.

هذا الموقف من ظاهرة العولمة يدور حول النظر إليها كما لو كانت مرادفة لانتشار ما يسمى أحيانا بـ "المجتمع التكنولوجي الحديث" إن هذه الظاهرة، ظاهرة انتشار " المجتمع التكنولوجي الحديث" ليست هي بالضبط انتشارا للاستغلال الرأسمالي وليست مجرد انتصار للعلمانية على العقائد الدينية، و ليست بالضبط قهرا من جانب هوية أمة لهويات أمم أخرى بل هي ظاهرة قد تكون أخطر بكثير من هذا كله. ومن ثم فإن الموقف الذي تستوجهه قد يكون أصعب بكثير مما نظن. (جلال أمين، 1998، ص 59)

وأمام التطور المذهل لتكنولوجيا الاتصال أيضا تجد الدول النامية نفسها أمام تحديات كبيرة حتى تواكب ذلك التحول التقني الذي مس كل القطاعات والمؤسسات ولعل أهمها المؤسسة التربوية. فالتطور التكنولوجي للاتصالات والمعلوماتية أدى إلى ظهور وسائل جديدة أطلق عليها البعض اسم "التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال". وهي تعني أساسا تلك الموصولة بالكمبيوتر. هذا ويعتبر الحاسب الآلي وسيلة مهمة لتفعيل ممارسة الاتصال العالمي وخاصة بواسطة شبكة الانترنت والإمكانات الهائلة التي تتيحها المعلوماتية بعد المزوجة بينها وبين وسائل الإعلام السمعية البصرية والاتصالات السلكية واللاسلكية عن بعد.



فقد جعلت المعلوماتية من وسائل الاتصال الجماهيري وسائل تقليدية وخاصة بعدما أدت إلى شخصنة الاتصال مجردة إياه تدريجيا من صفته الجماهيرية بفضل ازدياد وتيرة وحجم التفاعل المباشر وتنوع وتخصيص وكثرة الخيارات والخدمات الاتصالية. (فضيل دليو، 2002، ص 142)

وحيثما نتحدث عن المواطنة باعتبارها محضنا للهوية وللخصوصية الثقافية والحضارية، فإننا نقر من جهة ثانية أن كمال هذه المواطنة ومعرفة قيمتها الحقيقية يكمنان في وضعها في محيطها الإقليمي والدولي عن طريق الانفتاح على كل الأوطان. والاطلاع على تجارب الآخرين والبحث عن الحكمة أينما وجدت لإغناء رصيدنا الحضاري والثقافي وتعزيزه، ونقل تجربتنا للغير للإفادة منها والتعريف بها. فالانغلاق الجامد يؤدي عبر التاريخ إلى الاضمحلال والفناء، والتناقض والاندماج المتزن يؤدي إلى التطور والازدهار. وهناك من يرى أنها علاقة اجتماعية تقوم بين الفرد والدولة، ومن خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول الولاء والانتماء، ويتولى الطرف الثاني الأمن والحماية على كل المستويات الاقتصادية والاجتماعية والإستراتيجية... وأهم ما يميز هذه العلاقة هي المساواة التامة أمام القانون، حيث تركز المواطنة على قيم العدالة والمساواة والكرامة. وهي حق إنساني أصيل يتصل بكون الإنسان إنسان، ولا يتوقف على ديانتة وعرقه. (www.google.fr 03/09/2020 à 17h00) إن حاجتنا إلى تحديد ثقافتنا وإغناء هويتنا والدفاع عن خصوصيتنا ومقاومة الغزو الكاسح الذي يمارس على مستوى عالمي إعلاميا، إيديولوجيا وثقافيا لا تقل عن حاجتنا إلى اكتساب الأسس والأدوات التي لا بد منها لممارسة التحديث ودخول عصر العلم والتكنولوجيا، دخول الذوات الفاعلة المستقلة، وليس دخول الموضوعات المنفعلة المسيرة.

فالانحراط في عصر العلم والتقانة كفاعلين مساهمين أصبح ضرورة حتمية بغرض حماية هويتنا الثقافية من الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو الذي يمارس علينا وعلى العالم أجمع.

فمن الحقائق البديهية في عالم اليوم أن نجاح أي بلد من البلدان النامية أو التي هي في طريق النمو يكمن في الحفاظ على الهوية والدفاع عن الخصوصية من خلال اعتماد الإمكانيات الالامحدودة الإيجابية التي توفرها العولمة وفي مقدمتها العلم والتكنولوجيا، وهذا ما نلتمسه بوضوح في تخطيطات الدول الأوروبية التي يدق في كثير منها ناقوس خطر "الغزو الأمريكي" الإعلامي الثقافي الذي يتهدهدها في لغتها وسلوك أبنائها، تصوراتهم الجمعية، والذي يوظف أرقى وسائل العلم والتقانة ومنها الوسائط الاتصالية والأقمار الصناعية في اكتساح مختلف الحقول المعرفية والخصوصيات الثقافية. (مسعود ضاهر، 1993، ص 09)

إن أوروبا اليوم تتحدث حديث الخصوصية والأصالة، وتحدث عن الهوية الأوروبية تعزيزا لسيرها الجدي على طريق تشييد الوحدة بين شعوبها وأقطارها بخطوات عقلانية محسوبة في إطار من الممارسة الديمقراطية الحققة، وهي بذلك تقدم لمستعمراتها القديمة ولأقطار العالم الثالث بكله نموذجا صالحا للإقتداء به بعد ملاءمته مع الخصوصيات المحلية، انطلاقا من كون الهوية منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية والمعنوية والاجتماعية التي تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي إذ تتميز بوحدها التي تتجسد في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها (سعيد إسماعيل علي، 2005، ص 23)



ومن جهة أخرى وعاءا كبيرا يعترف ويوثق كل طوائف ومكونات المجتمع، وكائنا يتجسد في نفوس أبناء الوطن الواحد كجزء من تكوينهم الوجداني والذهني والنفسي (عبد الحكيم أحمين، 2017، ص14)

والمتتبع للأحداث التاريخية يدرك أن الولايات المتحدة أعطت أهمية كبرى لقطاع الإعلام والاتصال منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بغرض السيطرة على "مجتمع الإعلام" الذي يصطلح عليه مجتمع القرن 21م. وقد حاولت أن تتدخل ماليا وسياسيا ودبلوماسيا في هذا القطاع الذي تعتبره استراتيجيا للحفاظ على نفوذها في العالم. وفي مقال نشر في صحيفة "لوموند ديبلوماتيك" الفرنسية يؤكد "هربرت شيلر" (H.SCHILLER) وهو أستاذ في جامعة كاليفورنيا في مركز "سان دييغو" أن الحكم في الولايات المتحدة وبعبارة ما يظنه الكثيرون مستمر في مركز القيادة، الأمر الذي لا ينطبق بالضرورة على الوضع في الدول الصناعية الأخرى.

كما نشرت مجلة "وايرد" (WIRED) الأمريكية في سبتمبر 1996 مقالا تغنت فيه بميزات "عصر الشبكات" وبحسب ما ورد فيها "نحن على عتبة عالم رائع وجديد في الوقت نفسه. والمراقب في الخارج برأي "هربرت شيلر" يلخص منهج هذه الدورية المتخصصة بما يلي : "إنها ترى الحاسوب الآلي يؤدي بنا إلى شكل من أشكال الخيال اليوتوبيا، وإلى مستقبل أفضل يعود إلى هذا التزاوج ما بين الإنسان والآلة، وهي تصور مجال المعلوماتية كوسيلة تقودنا إلى عصر ذهبي. (Herbert scheller, 1996, p 103)

لذلك فقط قطاع الاتصال اليوم يحتل المركز الرئيسي في اقتصاديات الولايات المتحدة الأمريكية، ففي سنة 1996 حقق عملاقان في مجال المعلوماتية وهما "ميكروسوفت" (صانع البرامج) و"انتل" (صانع الأجهزة) أرباحا صرفا بقيمة 10 مليار دولار. ومن المؤكد أن ما يستهدفه هذا النوع من الغزو الثقافي على الصعيد العالمي هو كل مقومات الخصوصية الثقافية من قيم وأذواق ومختلف أنماط السلوك، الأمر الذي ينعكس أثره حتما وبصورة مباشرة في الفكر القومي ذاته. ويستهدف تاليا تسطيح الوعي بالسيطرة على الإدراك وتكريس نمط في الاستهلاك يخرّب الادخار يعوق التنمية في البلدان النامية. (محمد عابد الجابري، 1990، ص 135)

ومما لاشك فيه أن السياسة الاقتصادية الثقافية تفرض نفسها اليوم كمجال رئيسي للدراسة والتحليل لتمكن الدول من الصمود بوجه السلطة الاقتصادية والرمزية "لرأس المال المنتصر" بعد أن أصبح الإنتاج الثقافي جزءا لا يتجزأ من الإنتاج العام. وهنا لابد من القول أن التطور العالمي لوسائل الاتصال والإعلام لا يزال يشهد تدفق معلومات في اتجاه واحد من الغرب الصناعي الغني إلى الشرق النامي. وأن الأخبار والمعلومات تصدر من أوروبا و الولايات المتحدة من خلال شركات ووكالات أنباء دولية ، وعبر الأقمار الاصطناعية، وعن طريق برامج البث التلفزيوني التي تسيطر عليها الدول الصناعية، إضافة إلى الدور الذي تضطلع به الشركات التي درج على تسميتها المتعددة الجنسية في احتكار نتائج البحوث والمعارف العلمية بوضعها في خدمة تلك الدول.



وليس الغرض بالطبع نقل التكنولوجيا، وإنما اكتساب المعارف و المهارات لتوطين التكنولوجيا الملائمة، وجعلها متماشية مع متطلبات المجتمع واحتياجاته. لذلك نقول إن دور التقنية على المستوى الاجتماعي لا يتحقق إلا من خلال ما تقدمه من معلومات صحيحة وموضوعية تتكامل مع طموحات الناس من خلال ما تتيحه لهم من مجالات للتعبير عن آرائهم واتجاهاتهم. وفي هذا التوجه وحده تصبح وسيلة أكثر فاعلية في خدمة توحيد المجتمع وتطويره بل في المحافظة على النظام والأمن الاجتماعيين. ولنأخذ العبرة من دول وقفت أمام هذه التحديات تدفع عنها خطر التدفق الإعلامي غير المتوازن لتحول دون تأثر أجيالها بمضمون ما تشيعه وسائل خارجية من عادات وسلوك سيئة لدى الناشئة. فنشير مثلاً إلى موقف الحكومة الكندية ضد غزو بعض البرامج والمسلسلات التلفزيونية والسينمائية الأمريكية (مخدرات جرائم...).

هذا وقد استشعرت بعض الدول الأوروبية خطر العولمة، ورأت أنها مرادفة للأمركة. فنجد أن فرنسا مثلاً رفضت أن توقع على الجزء الخاص بالسلع والمواد الثقافية في اتفاقية (GATT).

بالإضافة إلى أن فرنسا واليونان كان لهما موقف صارخ في المؤتمر الدولي للسياسات الثقافية الذي نظمته اليونسكو في المكسيك عام 1982، فقد ندد وزير الثقافة الفرنسية ووزيرة الثقافة اليونانية بمواقف الولايات المتحدة التي تبذل جهوداً كبيرة لنشر الثقافة الأمريكية، واستعمال جميع الوسائل المتاحة لتحقيق هذا الهدف. واستعملا في خطبيهما ما أصبح كثير منا يتردد في التعبير عنه، وهو تعبير الغزو الثقافي وما ينتج عنه من تهديد لبنية الثقافة الوطنية، ومنظومة القيم في بلديهما، ومن تغيير لأنماط الحياة الاجتماعية والثقافية والسلوكية والأخلاقية.

فإذا كان هذا موقف البلاد المتقدمة من العولمة اقتصادياً وثقافياً. وفرنسا - كما نعلم - هي بلد النور والإشعاع الفكري، مثلما أن اليونان هي بلد الحضارة والثقافة الإغريقيتين اللتين كانتا من أهم عوامل النهضة الأوروبية، فكيف إذن يكون موقف الأمم والشعوب التي لا تزال تتلمس طريقها لتوضيح هويتها وشخصيتها الثقافية، ولبناء اقتصادها الوطني أو القومي؟ (مي العبد الله سنو، 1993، ص 62)

ولكن الحديث عن الهوية والشخصية الثقافية يثير دعاة العولمة، شأنهم في ذلك شأن دعاة الحداثة، فهم جميعاً يرفضون فكرة الهوية، بل إن بعض الدعاة والكتاب عدوا البحث عن الهوية نوعاً من الهوس، وأصبح كثير من الألفاظ والمصطلحات يجد بديلاً له من أجل تحسين صورة المضمون وتجميلها، أو من أجل تخفيف أثر ذلك اللفظ والمصطلح ووقعه في النفوس، مثال ذلك أن نفراً من المثقفين يرفضون مصطلح " الغزو الثقافي " ويعدونه دعوة إلى الانغلاق، ويضعون بدلاً منه مصطلحات متعددة مثل " التواصل الثقافي " و " التبادل الحضاري " ومع أننا نحن جميعاً ندعو إلى التواصل الثقافي والانفتاح بين الثقافات العالمية. إلا أننا لا نرى أن هذين المصطلحين هما بديلان عن " الغزو الثقافي " فالمصطلحات الثلاثة وأشباهاها قائمة، ومفهوماتها موجودة متجاوزة، ولا بد من التفريق بينها تفريقاً يحدد معالمها ويوضح أيضاً نتائجها. فالانفتاح أو التواصل الثقافي سبب من أسباب نماء الثقافة و تطورها. (ناصر الدين الأسد، 1998، ص 60)



وقد أكد " محمد عابد الجابري " أن الحفاظ على الهوية مرهون بالدراسات الاستمولوجية التي هي دراسات نقدية أساسا. والفكر الاستمولوجي هو فكر نقدي يقوم على نقد العلم للكشف عن مسبقات الفكر العلمي وخطواته وآلياته، بهذا المعنى فالاستمولوجيا هي مراقبة الفكر العلمي لنفسه باستمرار، وبذلك فالدراسات الاستمولوجية تمكن الإنسان من الروح العقلانية، وعندما نطالب بنشر الروح النقدية من الأوساط المثقفة العربية فإن دراسة الفكر العلمي وتاريخه. والاستمولوجيا بشكل خاص تشكل أحسن مطية باعتبار الجانب الإيديولوجي فيها غير حاضر بشكل قوي، و غياب الجانب الإيديولوجي هذا غيابا نسبيا في هذا المجال يجعل مختلف الأوساط النامية العربية تقبل التعامل معها وبالتالي يمكن تعميم الروح النقدية من خلالها أكثر من أي شيء آخر. إن الاستفادة التي يمكن أن نأخذها من الاستمولوجيا المعاصرة في التعامل مع تراثنا تعاملنا نقديا تمكننا من اكتساب روح نقدية أولا، و ثانيا نكتسب خبرة من خلال الممارسة النقدية للعلم ولتاريخ العلم نتسلح بمفاهيم بأدوات عمل نستطيع توظيفها في تراثنا توظيفا واعيا. (محمد عابد الجابري، 1991، ص 257)

لذلك على الدول النامية أن تتعامل بنوع من المرونة مع هذه التكنولوجيات التي تحمل قيم ومعايير وأهداف تسعى إلى ترويجها وتسويقها بطرق غير مباشرة حتى وإن كانت في إطار التواصل الثقافي والتبادل العلمي...ومن ثم على الدول النامية تعزيز خط دفاعها الأمتن: جهاز المناعة الذاتية المعتمد على تقوية مؤسسات التنشئة الاجتماعية بغية التمكن من إنشاء أجيال أكثر نضجا وقدرة على التصدي للجوانب السلبية لعصر المعلومات. وهذا لا يعني التخلي عن مواجهة هذه الجرائم المعلوماتية تكنولوجيا، ورفع تحدي المنحرفين عبر إنترنت بمقارعتهم موقع بموقع معلوماتي أو بالعمل على تصفية معلوماتهم ومواقعهم. وذلك بالموازاة مع تنشيط التعاون الدولي (القانوني، المعلوماتي، المادي و البشري) في هذا المجال. (عبد الله عبد الدائم ، 1998 ، ص 64) ومن ثم فالتشبث بالهويات لا يمكن أن يقتلع بين عشية وضحاها من ضمائر الشعوب وفكر الأمم. ولا يمكن للعملة أن تقتحم حصون الهويات والخصوصيات المنيعه بممارسات مجازفة غير مدروسة. والعالم الذي تريده الشعوب هو عالم لا تختزل فيه العملة الهويات والخصوصيات بما يجعله عالما "روبوتي" السمات والحركات، الفرد فيه نسخة مكررة طبق الأصل، والبشرية فيه فاقدة نعمة تنوع بشرتها، ولذة اختلاف طعمها وذوقها ولونها ونمط تفكيرها وعيشها، أي كل ما يتصل بالهوية المميزة والتفرد المثير لفصائل البشرية المخصب لعطائها، ولابد من تكامل العملة بحسناها وآثارها الحميدة مع الهوية بخصوصيتها وتميزاتها ليكون عالم الغد عالما واحدا ومتعددا في آن واحد. (عبد الهادي بوطالب، 1998 ، ص 132)

ويمكن أن نخلص إلى اعتماد آليات عملية تقينا سلبيات هذه التكنولوجيات وتزودنا بجهاز مناعي أمتن يمكن حصرها فيما يلي:

- 1- تعزيز بناء القدرات في العلوم والتكنولوجيا والابتكار، بهدف تحقيق أهداف التنمية المستدامة في الاقتصاد القائم على المعرفة، ولاسيما أن بناء القدرات هو الوسيلة الوحيدة لتعزيز التنافسية وزيادة النمو الاقتصادي وتوليد فرص عمل جديدة وتقليص الفقر، وإبراز الذات أمام السيل الجارف الذي لا يؤمن بالحدود.



2-وضع الخطط والبرامج التي تهدف إلى تحويل المجتمع إلى مجتمع معلوماتي. بحيث يتم إدماج التكنولوجيات الجديدة في خطط واستراتيجيات التنمية الاجتماعية والاقتصادية، مع العمل على تحقيق أهداف عالمية كالأهداف الإنمائية المسطرة على المدى البعيد، بغرض تحقيق مكانة في ظل المنافسة الشرسية التي تقتضيها العولمة.

3-إعداد سياسات وطنية للابتكار واستراتيجيات جديدة للتكنولوجيا مع التركيز على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات المحلية أمام تلك الأجنبية .

4-محاولة إيجاد آليات فعالة من أجل تنمية وطنية تراعى فيها الخصوصيات الثقافية والدينية...

5-ضرورة الاستثمار في مجال تكنولوجيا الاتصال والمعلومات في ظل المنافسة الشرسية التي تفرضها دول الشمال.

6-التركيز على المورد البشري كونه أساس كل تغيير، وذلك من خلال التربية والتكوين، وتوفير الوسائل التي تساعد في الابتكار والاختراع...

7-ضرورة تفعيل البحوث العلمية الكفيلة بتغيير المجتمعات النامية من مجتمعات مستهلكة للتكنولوجيا إلى مجتمعات منتجة للتكنولوجيا.

3-خاتمة:

إن التربية على المواطنة والمحافظة على الهوية الثقافية تمكنان الإنسان من آليات التنمية الذاتية والانفتاح الموزون على المحيط. كما أنها تعيد التوازن بين ما هو محلي و بين ما هو كوني للتخفيف من غلو قيم العولمة بصفة عامة وعولمة الإعلام بصفة خاصة، وما ترتب عنها من انهيار للحدود بين الثقافات المحلية والعالمية، وما صاحب ذلك من آثار سلبية أحيانا، وذلك للحفاظ على الهوية الوطنية والخصوصية الثقافية بشكل يضمن الانتماء الذاتي والحضاري للمواطن دون التصادم مع الأفكار الرائجة في محيطه. ومتى استطعنا أن نصل إلى تكوين إطار عام أو خطوط عريضة لمشروع ثقافي حضاري ندخل به في الخطاب العالمي الثقافي والحضاري، وتتفاعل مع هذا الخطاب بمشروعنا وتعامل معه، فإننا نستطيع حينئذ أن نأخذ من العولمة ما نريد وما نحتاج إليه، وأن نعطي بالقدر المتاح مهما يكن ضئيلا، وبذلك ندخل في موكب العولمة الإعلامية أخذنا وعطاءا.



قائمة المراجع باللغة العربية:

- 01- محمد عابد الجابري، إشكالية الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1990) ؛
- 02- محمد عابد الجابري، التراث والحداثة (دراسات ومناقشات)، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1991) ؛
- 03- ماجد شددود، العولمة مفهومها، مظاهرها، مطبعة اليازجي، (دمشق، سوريا، مطبعة اليازجي، 1998) ؛
- 04- ناصر الدين الأسد، الهوية والعولمة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، المملكة المغربية، أكاديمية المملكة المغربية، 1998) ؛
- 05- سعيد اسماعيل علي، الهوية والتعليم، جامعة عين شمس، (القاهرة، مصر، جامعة عين شمس، 2005) ؛
- 06- عبد الهادي بوطالب، لا بد من تكامل العولمة والهوية ليكون العالم واحدا ومتعددا، أكاديمية المملكة المغربية، (الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، 1998) ؛
- 07- عبد الحكيم أممين، الهويات الافتراضية في المجتمعات العربية، دار الأمان، (الرباط، المغرب، دار الأمان، 2017) ؛
- 08- عواطف عبد الرحمان، قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، عالم المعرفة، (القاهرة، مصر، عالم المعرفة، 1990) ؛
- 09- فضيل دليو، وسائل الاتصال و تكنولوجياته، منشورات جامعة قسنطينة، (الجزائر، منشورات جامعة قسنطينة، 2002) ؛

المراجع باللغة الأجنبية:

- 1- Herbert scheller, des putes branchées de l'ère numérique, le monde diplomatique, (paris, le monde diplomatique, novembre 1996) ؛
- 2- Adary et autre, communicator, toutes les clés de la communication, (éd07), dunod, (paris,dunond, 2015) ؛

المجلات:

- 01- جلال أمين، العولمة و الهوية الثقافية و المجتمع التكنولوجي الحديث، مجلة المستقبل العربي، 1998 ؛
- 02- محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، عشر أطروحات، مجلة المستقبل العربي، 1998 ؛
- 03- مسعود ضاهر، الثقافة العربية في مواجهة التغيرات الدولية الراهنة، مجلة الفكر العربي المعاصر العدد 100، 1993 ؛
- 04- مي العبد الله سنو، العرب في مواجهة تطور تكنولوجيا الإعلام و الاتصال، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 100، 1993 ؛



- 05- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر العولمة، مجلة عالم المعرفة، 2001 ؛
- 06- عبد الله عبد الدائم، التربية والقيم الإنسانية في عصر العلم والتقانة والمال، مجلة المستقبل العربي قسم الدوريات، 1998/11/15 ؛